الفصل الأول

النحت فى العصر الحجرى القديم

كان الإنتاج المنحوت أوسع انتشاراً من الصور الحائطية فقد عثر على التحف المنقولة فى أماكن منتشرة فى أوربا من أقصاها إلى أقصاها فيما بين جبال البرانس والروسيا . ومن أهم الأماكن التى عثر فيها على تحف من هذا النوع لوچرى باس ومادلين وكرومانيون وبعض المغارات والمآوى الصخرية الأخرى فى دوردونى بفرنسا .

وقد وجد أن التحف عريقة فى القدم وأقدمها يرجع إلى العصر الأورجناسى الأسفل وتكثر فى العصر المجدالين لاسيما المجدالينى الرابع وتقل جداً فى العصر السولترى وذلك يرجح الظن بأن الإنسان السولترى لم يكن ميالا إلى الفنون .

وكان الإنتاج المنحوت يشمل تماثيل منحوتة من جهة ورسوماً بارزة أو محفورة من جهة أخرى .

التماثيل :

أما التماثيل فكانت صغيرة وتصنع غالباً من الحجر والطمى والعاج

والعظم والقرون . وكانت التماثيل الحجرية تلون أحيانا برسومات مصورة أو حليات محزوزة .

وقد عنى النحات بتمثيل الإنسان عامة وبالمرأة خاصة إذ كانت تماثيل النساء التى عثر عليها أكثر وأوسع انتشارا من تماثيل الرجال كما اهتم كذلك بصنع تماثيل الحيوانات المختلفة التى كانت تعيش فى عصره

التماثيل الآدمية :

ولقد عثر على تماثيل جميلة لنساء ورجال من العصر الاورجناسى الأسفل منها « الرأس » شكل (١) ويطلق عليه اسم غادة براسمبوى وقد عثر عليه فى براسمبوى بمقاطعة لاندى جنوب غرب فرنسا وهو من عاج حيوان الماموث ويمثل رأس فتاة قد صنف الشعر فيه على شكل خطوط متقاطعة وقد نجح الفنان فى إظهار المعالم الرئيسية فيه وتجنب تحديد التفاصيل فلم يعن باظهار الفم بتاتا أما الأنف والعينان والحاجبان فقد اكتفى باظهارها اظهارا تخطيطياً .

ومن العصر نفسه عثر على تمثال من العاج يمثل جذع امرأة وقد أطلق عليه أيضاً اسم غادة براسمبوى وذلك حسب الجهة التى عثر عليه فيها وهو محفوظ الآن بمتحف سانت جرمان .

ولقد عثر على تمثال لامرأه يرجع إلى العصر الاورجناسى الوسيط وهو تمثال صغير من الحجر وجد فى سيريل بدوردونى فى فرنسا شكل (٢) وهو يمثل جذعا كاملا لأنثى قد تقوست فيه الذراعان والرجلان وقل

بروز الثديين واشتد بروز أعلى الفخذين إلى الخلف . أما رأس التمثال فقد حطم ولم يبق منه إلا خصلة قصيرة من الشعر . والجذع ضيق من الأمام والخلف ومتسع من الجانبين ، ويخترق جانبيه العريضين ثقوب مما يرجح أنه كان معلقا إما كتميمة وإما على سبيل الزينة وربما للغرضين معاً

ولقد لجأ الفنان إلى تحوير الذراعين والرجلين بحيث بدت قصيرة وملتصقة بالجسم ربما ليجمع بين الأعضاء والجذع حتى يكون الشكل وحدة متصلة وقد ساعد ذلك على عدم تلفها وبذلك أمكن حفظها عشرات الآلاف من السنين وربما يرجع تحطم رأس التمثال إلى عدم ارتباطه بالجذع هذا الارتباط المتين .

ويلاحظ أن الفنان قد نجح — على الرغم من التحوير — فى إظهار الأجزاء التى تهمه عن طريق الخطوط المنحنية الجميلة كما كان موفقاً بعض التوفيق فى وصل الفخذين بالجذع من الأمام والجانبين.

غير أن كثيرا من التماثيل الآدمية ترجع إلى العصر الاورجناسى الأعلى أو المتأخر ومن هذه التماثيل غادة لسبيج شكل(٢) وقد عثر عليها فى كهوف ريدو فى لسبيج بهوت جارون فى فرنسا . وهذا التمثال أحدث كثيرا من تمثال غادة سيريل وصناعته جيدة . — والشكل محور تحويرا كبيراً . وتبدو السيدة مرتدية رداء يستر اسفل ظهرها . والفخذان بارزتان من الجانبين وهذا يزيد فى تحويرها وربما لجأ المثال إلى ذلك نظراً لضيق التمثال من الجانبين . والرأس صغير جداً ذو وجه بيضاوى محور لا تظهر به ملامح ويتدلى الشعر على الظهر . والثدى شديد الانخفاض إلى أسفل ويتدلى الذراعان من اعلاه . أما الرجلان

فهما مجردتان بشكل كبير وشديدتا التحوير وقصيرتان وينقصهما القدمان .

وعلى العموم فالشكل العام شديد التحوير إذ عنى الفنان بإيضاح الاجزاء التي تبعه فزاد فى حجمها بينما بالغ فى تجريد الأجزاء الأخرى ولكنه مع ذلك قد وفق فى اظهار الشكل العام وفى مراعاة التناسب بين الحجوم والكتل كما أعطى التمثال شيئاً من الحركة وذلك بفضل استخدامه للانحناءات .

ويلاحظ أن جميع التماثيل الصغيرة الأخرى وجدت إلى الشرق من ذلك ومن أشهرها مجموعة ترجع إلى العصر الأورجناسى الأعلى عثر عليها فى جريمالدى ومنها عدة تماثيل صغيرة كشف عنها فى منتون الفرنسية بالقرب من الحدود الإيطالية وأحدها التمثال شكل (٤) وهو من الحجر ويمثل أنثى ويمت بصلة كبيرة لغادة لسبيج . وفيه تضخمت الثديان والبطن وأعلى الفخذين . وقد خلا الوجه من الملامح كما ناسب المثال بين الأحجام وعنى بالخطوط المنحنية .

وإلى الشرق من ذلك فى وسط أوربا عثر على كثير من تماثيل نساء ذات شكل غريب ومن أشهرها تمثال يرجع إلى العصر البريجوردى عثر عليه بالقرب من ڤلندروف على الدانوب شكل (٥) وهو من الحجر الجيرى والتمثال صغير الحجم وفى حالة جيدة جدا ويمثل امرأة بدينة قصيرة الرجلين ذات ذراعين صغيرتين منثنيتين ضخمتين وذات شعر مصفف على هيئة حبات وقد تفادى الفنان تصوير الوجه بأن أمال الرأس إلى الأمام وهو متفق مع باقى الفنانين فى العصر

الأورجناسى الذين كانوا يهملون تفصيل ملامح الوجه إلا أنه قد بالغ فى ذلك بتفادى تمثيل الوجه كله .

وفى التمثال تناسب عجيب بين الأحجام والكتل يدل على ذوق ومهارة . وهو محور مثل غادة لسپيج إلا أنه يختلف عنها فى مظهره اختلافاً كبيراً . ويعتقد أن هذا التمثال يمثل تصور الإنسان فى العصر الحجرى القديم للجمال المثالى عند المرأة .

ومن العصر المجداليني عثر على تماثيل أخرى نذكر منها على سبيل المثال التمثال المسمى بغادة ڤبراج الذى اكتشف فى ڤبراج فى شمال فرنسا وهو تمثال صغير من العاج مهشم الرأس . وهو قليل التحوير بالنسبة إلى تماثيل النساء فى العصر الأورجناسى . وقد عثر على تماثيل أخرى تتصل بالجنس . بعضها يرجع إلى العصر المجداليني الثالث أو الرابع .

وهذا النوع من التماثيل بالإضافة إلى تماثيل النساء الأخرى التى سبقت الإشارة إليها والتى عثر على بعضها فى طبقات العصر الاورجناسى الأسفل ترجح أنه قد كان هناك قبل بداية العصر الاورجناسى تقاليد فنية راسخة يمكن اعتبارها صدى للأفكار المتصلة بالتناسل الذى لابد وأنه قد استحوذ على ذهن الإنسان فى ذلك العصر كما ظل يشغله بعد ذلك فى جميع العصور .

وعلى الرغم من أن تماثيل النساء كانت أعم وأوسع انتشارا فقد عثر أيضاً على بعض تماثيل لرجال ومنها تمثال نحت فى قمة عصا مثقوبة

يمثل رأس رجل وقد وجد فى بلاكارد بشارنت فى غرب فرنسا ويرجع إلى العصر المجدالينى الثالث .

تماثيل الحيوانات :

وإلى جانب التماثيل الآدمية عنى الفنان فى العصر الحجرى القديم بنحت تماثيل الحيوانات . ولقد كان الفنان هنا أميل إلى تقليد الطبيعة منه فى التماثيل الآدمية . ويرجع أقدم هذه التماثيل الحيوانية إلى العصر الاورجناسى إلا أن العصر المجدالينى الرابع كان أغنى العصور القديمة وأهمها من هذه الناحية . وأغلب تماثيل هذا العصر مصنوع من قرون الوعل وبعضها من العاج أو العظم وقليل منها من الحجر

وسنعرض لأمثلة توضح الاسلوب الفنى فى هذا العصر ذى الاهمية الخاصة فى صناعة التماثيل الحيوانية .

ومن تماثيل الحيوانات التى ترجع إلى هذا العصر المجدالينى الرابع التمثال شكل (٦) وهو من العاج وقد عثر عليه فى اسبليج فى هوت پرنيز ويمثل حصاناً جميلا شديد الشبه بالطبيعة وصناعته فى غاية الاتقان . وفضلا عن توفيق الصانع فى إظهار الشكل العام فقد نجح فى التعبير عن تفاصيل رأس الحيوان بالإضافة إلى اهتمامه بالتعبير عن معرفة الحصان وشعره .

وشكل (٧) تمثال لقط وحشى من العظم عثر عليه فى استورتز

فى باس پرنيز ويرجع إلى العصر المجداليني الرابع . وقد اهتم الفنان هنا بالشكل العام فقط . وهذا يبدو جامداً متصلباً غير أن حركة الرأس لا بأس بها . ويشاهد على جسم الحيوان ثقوب مما يرجح أن التمثال كان يعلق منها ويحمل . والسهام المحزوزة فى جسم الحيوان تلقى بعض الضوء على الغرض الذى كان يرمى إليه الإنسان فى العصر الحجرى القديم من تمثيل أو تصوير الحيوانات التى كان يسعى لصيدها ويعتمد عليها فى حياته وسوف نتكلم عن ذلك بشىء من التفصيل بعد دراسة التصوير . أما الآن فيكفى أن نقول إنه يرجح أن الإنسان القديم كان يعتقد أن رسم السهام على تمثال الحيوان أو صورته نوع من السحر يخضع الحيوان الحى تحت سيطرته ويوقعه فى قبضته .

وشكل (٨) تمثال بيزون أو بقر وحشى نحت فى رأس أداة من قرن الوعل عثر عليه فى مادلين فى دوردونى ويرجع إلى نفس العصر . وإذا كان القط الوحشى السابق جامد الحركة متصلب الجسم فإن هذا البيزون قد صور فى حركة إذ يرى وقد أدار رأسه إلى الخلف وهذه حركة يندر تمثيلها فى الفنون القديمة والشكل العام محور تحويراً جميلا يتسم بالحيوية ويلاحظ هنا البراعة فى الوصل بين تمثال الحيوان وباقى الأداة .

ولقد عرف هذا النوع من الأدوات فى العصر المجداليني الرابع وكانت رأس الأداة تصنع على شكل حيوان كامل أو جزء منه .

وشكل (٩) رأس حصان من قرن الوعل عثر عليه فى ماس دازيل

فى أريبج ويرجع إلى العصر المجداليني الرابع . ويشهد هذا الرأس للفنان القديم بالبراعة فى تمثيل الحيوان تمثيلا طبيعياً وفى التعبير عن الحركة وفى إعطاء شخصية مميزة. وإذا كان الفنان قد وفق — على الرغم من التحوير — فى إظهار حركة البيزون أثناء ثنى رأسه إلى الخلف فإنه من غير شك أشد توفيقاً فى التعبير عن الفعل والحركة فى رأس هذا الحصان فى حالة الصهيل .

الرسوم المحفورة

وإلى جانب التماثيل الكاملة أو البارزة عثر على كتل حجرية أو عظمية أو عاجيه عليها صور لحيوان أو انسان بعضها محفور حفرا منخفضا أو بارزا وبعضها خزوز وهذه تتفق مع التماثيل الكاملة من حيث الزمن والانتشار. كما وجدت أدوات كعصى وغيرها حفر عليها صور أو زخارف. وصور الحيوانات على الأدوات منقوشة فى الغالب بمهارة وخطوطها تدل على براعة الفنان وثقته بنفسه والفراغ مظلل باتقان ودقة وخطوط التظليل موزعه توزيعا حسنا . وكان الشكل العام يدهن أحيانا باللون الأسود أو الرمادى وأغلب الحيوانات المرسومة الحصان والبيزون والوعل ويوجد أمثلة عديدة لصور السمك التى تكاد تختفى فى الصور الحائطية . أما الصور الآدمية فقليلة جدا ومحورة ويجدر بنا الإشارة الى أن هذه الرسوم المحفورة على الأدوات

أو القطع العاجية او الكتل الحجرية كانت ذات صلة وثيقة بالصور الحائطية

وقد عثر على أمثلة محفورة من أقدم العصور الفنية ومن ذلك شكل (١٠) وهو يمثل قطعة من عظم جبهة حصان عثر عليها فى كهف هورنوس دى لابينا فى كنتابريا فى شمال أسبانيا وكانت مطمورة فى طبقة حضارية ترجع إلى العصر الاورجناسى الأسفل . والرسم أولى لايعدو أن يكون خطوطا خارجية محددة غير كاملة . إلا أنه موفق فى التعبير عن الشكل العام . ويلاحظ الشبه الكبير بين هذا الرسم الصغير على قطعة العظم ورسم آخر لحصان كامل محفور على أحد جوانب الكهف نفسه وذلك فيما يختص بالشكل العام وأسلوب الرسم . وإذا لاحظنا أن قطعة العظم قد عثر عليها على بعد عدة ياردات فقط من الرسم الحائطى أمكن ملاحظة الصلة الوثيقة بين الرسمين مما لا يترك مجالا للشك فى أن الحفر الحائطى يرجع إلى نفس العصر الذى حفر فيه الرسم على القطعة العظمية أى إلى العصر الأورجناسى الأسفل . ويمكن أن نذهب أبعد من ذلك فنقول إن الرسم على قطعة العظم ربما كان رسما أوليا للرسم الحائطى .

ولقد عثر على عدد أكبر من القطع والكتل المحفورة من العصر الاورجناسى الأعلى وكانت رسومها أكثر اتقانا من الرسم السابق . وفى هذا العصر والذى تلاه لم تقتصر موضوعات الرسوم المحفورة على حيوانات

فردية بل رسمت موضوعات تشمل انسانا وحيوانا فى حركة حية ومن ذلك شكل (١١) وهو رسم محفور على لوح من حجر الشست من بشياليه فى دوردونى يمثل صراعا بين دب ورجلين فيرى الدب واقفا على رجليه الخلفيتين يهاجم أحد الرجلين بينما يأتى زميله من الخلف إلى نجدته . والصورة لا بأس بها من حيث التعبير عن الحركة وفى توزيع الأشخاص وصادقة فى أداء المقصود منها إلا أنها خالية من التجسيم إذ اكتفى بحز الخطوط الخارجية فقط .

أما شكل (١٢) فرسم محزوز على جزء من عصا مثقوبة مصنوعة من قرن الوعل عثر عليها فى هوتو فى آن فى شرق فرنسا . وهذا الرسم يمثل أسلوبا محليا من الفن ازدهر فى كولومبيير فى شرق فرنسا حيث وجدت طبقة حضارية يرجح أنها أقدم من العصر المجدالينى وأحدث من العصر الاورجناسى ولو أنه عثر فيها على أثر واحد يمثل الحضارة البريجوردية وقد عثر فى هذه الطبقة على مجموعة كبيرة من الكتل الصغيرة التى تشمل صورا محفورة لحيوانات مختلفة كالدببة والبقر والخيل والوعول وواحدة منها تشمل صورة امرأة وأخرى تشمل صورة رجل .

وتتميز صور هذه المجموعة عن الصور الاورجناسية فى أسلوبها وطريقة إظهار الحيوان فقد توصل إلى رسم البروفيل الكامل حيث يظهر قرن واحد بدل قرنين والبروفيل الكامل من ميزات العصر المجدالينى . أما الخطوط الخارجية فتدل على ثقة الراسم ومهارته فى التحديد . وفوق ذلك فقد عنى الفنان بإظهار التفاصيل فيكاد

يكون الرأس كامل التفاصيل كما حاول أن يظهر الفراء وذلك عن طريق التظليل بخطوط قوية قصيرة . وقد نجح الفنان فى التعبير عن العدو والصراخ فبدا الحيوان مملوء بالحيوية والحركة .

ويرجح أن أسلوب الرسم فى هذه المجموعة يعتبر إحدى مراحل التطور من الفن الاورجناسى إلى الفن المجدالينى ، إلا انه يلزم الحصول على مكتشفات جديدة تنير الطريق حتى يمكن التعرف على جميع حلقات التطور بين الفنين .

وقد سبق أن ذكرنا أن العصر المجدالينى الرابع هو أغنى أزمنة أواخر العصر الحجرى القديم فى هذا النوع من الإنتاج الفنى ومن أمثلة التحف التى ترجع إلى هذا العصر شكل (١٣) وهو رسم محفور على عصا من قرون الوعل عثر عليها فى لورتيه فى هوت پرنيز ويشمل الموضوع صورة وعلين يعدوان وقد أدار أحدهما رأسه إلى الخلف وبين أرجلهما أسماك سابحة فى اتجاهات مختلفة . ويمكننا المقارنة هنا بين استدارة رأس الوعل فى هذا الرسم المحفور وبين رأس البيزون شكل (٨) . ويلاحظ ان البروفيل كامل ويمت بصلة كبيرة إلى البروفيل فى شكل (١٢)

والرسم هنا أكثر إتقانا من الرسوم المتقدمة فالخطوط المحددة قوية ومتصلة ومحاولات التجسيم والعناية بالتفاصيل والتعبير عن الحركة ومحاكاة الطبيعة اكثر تقدما واتقانا . وتجدر الإشارة إلى ان حركة الأسماك تدل على ملاحظة .

ولم تقتصر الرسوم على العصى والاجنات بل تعدت إلى غيرها من الأدوات الأخرى فقد عثر فى أحد كهوف بريجورد على مصباح من الحجر حُز عليه صورة ماعز وحشى

ومما تجدر الإشارة اليه أنه على الرغم من سعة انتشار الفنون الفرعية والعثور على هذه الأدوات فى جهات تبعد احداها عن الأخرى قد وجد بالدراسة أن الأساليب قد تطورت تطوراً متشابهاً فى الجهات المختلفة وأنه قد وجد فى العصر الواحد أسلوب متشابه فى جهات متفرقة متباعدة ومن ذلك مثلا الرسوم المحورة المتشابهة التى ترجع إلى العصر المجدالينى الأسفل والتى وجدت على قرن وعل فى پلاكارد بشارنت وفى سولتريه بدوردونى وفى كهف مازيكا فى بولندة بالقرب من أجكو وفى كستلد فى كنتابريا فى شمال اسبانيا.

أما التحف المنقولة فى أواخر العصر الحجرى القديم أى الأزيلى المتأخر فتمتاز بأن الرسوم المحفورة عليها كانت محورة جداً أو زخارف هندسية. ومن أمثلة ذلك حصوات مزينة برسوم عثر عليها فى ماس دازيل وكانت تشمل رسوماً محفورة غاية فى التحوير تقرب من الوحدات الهندسية. وبمقارنة بعض الرسوم المحورة على حصوات ماس دازيل برسوم حائطية محورة لآدميين عثر عليها فى منطقة الليڤانت باسبانيا وتشمل عدة وحدات يمكن اعتبارها حلقات فى تطور الأسلوب المحور من الأقرب إلى الطبيعة إلى الأقرب إلى الهندسى يلاحظ أن بعض الرسوم التى تحويها حصوات ماس دازيل

تشبه أكثر مراحل التطور فى الرسوم الآدمية المحورة على التصوير فى منطقة الليفانت الأسبانية .

ومن أمثلة الرسوم المحورة أو الخطوط الهندسية التى يرجح أنها لاتحمل أى معنى الخطوط المجراة المحزوزة على كتلة حجرية عثر عليها فى سوردس .

ومن الطبيعى أنه كانت هنا دوافع كثيرة تدفع الإنسان القديم إلى حفر بعض الرسومات على أدواته وعلى بعض الكتل الحجرية وإلى صناعة التماثيل المختلفة . ولقد كان السحر عاملا مهما جداً فى فنون العصر الحجرى القديم، فإنه يرجح أن الإنسان القديم كان يرمى من وراء تصوير الحيوان أن يسحره بحيث يسهل عليه صيده ، أى أن التصوير فى هذه الحالة كان وسيلة سحرية للحصول على الغذاء ، وسنتكلم عن هذا الهدف بشىء من التفصيل عند تناول الصور الحائطية .

ولكن فى الوقت نفسه ، لا يمكن إنكار العامل الزخرفى فى حالة الأدوات الفرعية، فلاشك أن الإنسان القديم كان يشعر براحة نفسيه عند تجميل الأداة التى يستعملها فى أغراضه المختلفة ، سواء أكانت مصباحا أم حربة أم أجنة .

وبالإضافة إلى ذلك، فإن بعض الرسوم التى كانت تحفر على الكتل

وحجرية أو قطع الخشب والعاج يمكن اعتبارها رسوما مبدئية يسترشد بها الفنان عند رسم الصورة الحائطية داخل السكوف المظلمة، وفضلا عن ذلك فإن بعض القطع كان يستعمل كألواح للتعليم، فلقد عثر على بعض القطع تشمل رسوما مصححة بيد تختلف عن اليد التي سطرت الرسم الأول، مما يرجح أن هذه الرسوم كانت تمرينات للمتعلمين.

obeikandl.com